إهداءٌ

إلى الذين يجاهدون أنفسهم والمجتمع وكل وسوسة؛ حتى يكونوا النسخةَ الأفضلَ منهم.

المُقدمة

قصتي قصِيرة لا تحتاجُ لِمُقدمةٍ قد تكُون أطول مِنها.

قراءة مُمتِعَةً عزيزي القارئ.

الفصل الاول.

٢٥ اكتوبر 1917

"أغدًا ألقاكَ، وألقي الشَّوقَ في عَيْناكَ."

بأناملَ نحيفةٍ أعادتْ قلمَ الريشةِ لمَوْضِعِه، تتأملُ ما دَوَّنت من جملةٍ موجزةٍ تعبّر عن ما يعتري وجدانها. وددتُ لو تكتب آلافَ الحروفِ الأبجدية حتى يجفَّ بحرُ الكلمات، ولكنها فكرت أن خيرَ الكلام ما قَلَّ ودَلَّ. لفت الخطابُ حولَ قَدَمِ حمامةٍ بيضاءَ وأطلقتْ سراحَها لتُرسلَ مُرْسَلَها للحبيب. ووقفتْ تتمايلُ على إحدى سيمفونيات بيتهوفن تسهو في التخيلاتُ الحالمة، غدًا سيأتي ليتقدّم لخطبتها كما وعدها.

احتاجتْ إلى خمسةِ أعوامٍ لعلاقةٍ تفتقدُ لمُسمّاها الحقيقي تحت شعاراتٍ كاذبةٍ من: " أنتِ أختي - أنتِ صديقتي العزيزة"، وصبرت حتى تلفظت أخيرًا بـ "أنتِ حبيبتي". وهكذا ملكت الحقَّ بمطالبته بأن يطرقَ البابَ الأمامي ويأتي راغبًا بها أمام الأهلِ والجيران. وعندما شعرت أنه يتملص من مرادها، تفاجأت بموافقته، سعدتْ، ورَفرفتْ أجنحتها في فضاءِ الغرفة تكاد تخترقُ الأسقفَ وتُحلّق في السماء. حتى جلستْ وكتبت له ذلك الخطاب.

٢١ أكتوبر ١٩١٧

جاء موعد لقاء الحبيب، عوضًا عنه جاءت الحمامة تحمل خطابًا جديدًا.

فكت عقدة المرسال من قدمها، تروي عينيها بشوك حروفه، تكاد تدمع دمًا.

من العزيز سفيان بن فرحات، كما يظن أنه عزيز.

إلى العزيز آسيه ابنة شعيب.

أبلغك بكل آسفٍ أعذاري الواهية في عدم الحضور والتي لم أذكرها. ولكنني أحببت أن أترك لك خبرًا بعدم مجيئي، كما يقولون: ثلاث يأتون دون موعد، الحب، الحظ، والموت. أحدهم طرق بابي، والآخر هدم قواي، أما آخرهم فأشعر أنه قريب. لذلك لم أرد أن يكون اختفائي دون موعد، موعدنا اليوم هو موعد افتراقٍ عكسَ ما تمنيت. اعذريني لتخلفي عن وعدي، ولكن الأمر خارج سيطرتي. ما زال قلبي ينبض بحبك وسيظل حتى وهو ينزف من كلمات الوداع. يا آسيه تزوجي، وحاولي نسياني، بل أدعوكِ أيضا لحرق

المراسيل وكل شيء يخصنا، ولا تحي علي ذكريات لم تعود مهما طال الأمد.

لك حبي وأشواقي وفراقي دون موعد.

اخر خطاب من الدنيء "سفيان" كما يظن أنها صورته الآن بعينيك.

أقبلت عليها والدتها السيدة "فاطمة الزهراء" بعدما لمحت تخشبها أمام النافذة، تلتقط منها الورقة وتطلع عليها. صدمتها لم تقل عن ابنتها ولكنها تماسكت لتخرج قرارًا حاسمًا يكوي قلبها قبل ابنتها: "ابن عمك سيأتي لخطبتك اليوم، احمدي ربك أن أباك لا يعرف من القادم للخطبة."

اتكأت "آسية" بكفوفها على المنضدة، ومن خلف أهدابها عبرت دون تلفظ عن كل شيء. بياض محجريها مزج بشرايين دموية انفجرت غضبًا كارهًا للحزن والهزيمة، بالكاد تقيد ذاتها من تحطيم ما تطوله يداها.

أردفت الأم في عتاب: "لا تنظرين لي هكذا، لقد نصحتك وأردت إبعادك عن تلك العلاقة، وأخبرتك كثيرًا أن قلبك هذا لا تهديه إلا لزوجك."

ردت عليها بصوت شجن: "قلوبنا ليست بيدينا، لقد أحببنا بعضنا وكان آتيًا ولا أعرف حدث له، أنا قلقة عليه."

وبختها السيدة "فاطمة": "لم يحبك، المحب يطرق الباب ولا يسترق النظرات من خلف النوافذ كالصوص لخمسة أعوام. وحتى الوعد الذي أعطاه لك لم يوفي به."

دنت منها تربط على يديها، تكمِل: "ليس هناك شيء يجعل الرجل بخلف بوعده سوى الموت، وطالما هذا المرسال جاء لك فهو حي."

آسية: لم يكن مجبرًا على تقديم وعده حتى يخلف عمدًا، ألا ترين حال مصر والحروب؟ العالم ينهار من حولنا، تكاد البشرية تُباد ولا يبقى كائن حي.

السيدة فاطمة: ومع ذلك، الرجال يتزوجون. واصلت قبل رحيلها في تحذير: "تجهزي للمساء ولا يحق لك الاعتراض."

الفصل الثاني.

ميناء الإسكندرية.

يصطف أسطول من السفن الحربية التابعة لقوات الاحتلال البريطاني، ووقف على بعد ذراعين من المرسى رجلان ذو عيون زرقاء ومسحة من اللون البرونزي على محياهما يحملان شارة ضباط بريطانيا على بذلتيهما العسكرية، يشرفان على حملتهما الجديدة.

مال أحدهما على أذن الآخر يهمس: أترى ذلك الشاب الأسمر بالصف الثالث؟ وبإيماءة بسيطة أعطى الإشارة له ليكمل: "ينتظر اللحظة المناسبة للفرار".

وبعد لحظات من إنهاء حديثه ركض الفتى، ورفع الضابط الصامت مسدسه يطلق الرصاص عليه، تزامنًا مع إطلاق الرصاصة رفع

الضابط الآخر يد زميله للسماء يصرخ عليهم بأمر: "قيدوا ذلك الخنزير!"

همس للضابط: احتفظ برصاصك بعيدًا عن الفتى، نحن نحتاجهم وإن كان مكتوبًا لهم الموت فليكن برصاصات العدو.

"طالع زميله لوهلة، يدس المسدس في حزام الخصر، يطوي الأرض أسفل حذائه ويصعد للسفينة."

تابَع الآخر أَثرهُ الغاضبَ ثمَّ توجه إِلى الشابِ المُقيَّدِ يسأَلهُ: ما اسمُكَ؟

أَجاب الشابُ بِاعتزازٍ: سفيان.

الضابط البريطاني: هل تعرِفُ استخدامَ الأسلحةِ؟ "نَفَى سفيان" فَأكمل الضابط: "ضعوه بالصفُوف الأولَى."

أحَد الجُنودِ البريطانيينَ: هكذا سِيمُونُ مِنَ الوهلةِ الأُولَى.

حذره الضابط: أيهَا الجندِي، لا تُنَاقشنِي. إن لَمْ تَضَع هؤلَاءِ الَّذِينَ بلا قيمةٍ كطعمٍ لهم، فَمن ستضع؟ الحريفُ لِيُلاقي حتفه سَرِيعًا.

ساعة السحر كان بالسويس يستريحان حتى الصباح فيكملا زحفهما إلى الشام لملاقاة قوات الجيش العثماني. بدأ الجنود البريطانيون في إشعال النيران بالصحراء يلتفون حولها خوفًا من عقارب الصحراء، أما المصريون فقد استلقيا بعيدًا عنهم دون نيران، عُراة من الأغطية، ويتوسدون الخلاء.

تسلل "سفيان" من بينهم يتسلق هضبة منخفضة، تتراقص عيناه على كلا الشقين. يبرز تعاليهم عليهم في كل فعل، ومع أول شعاعٍ من الشمس سيكون الشباب المصري الجاهل كليًا عن استخدام السلاح في أول الصفوف فهم ليسوا رجال صفوفٍ منظمة، ما هم إلا فلاحون بسطاء ذاهبون بالإجبار لخوض حرب ليست حربهم ولم يتعجب إن لم يحملوا أي أسلحة، فهم طُعم كما قال قائدهم.

ترأرأت عيناه بين الرجال يتذكر الفتى الصغير من البلدة قبل أن يفترقا حين سأله: كم عمرك؟

فأجاب الفتى: بالحروب أنا بلا عمر، أنا جندي فداءً لأرضه.

سفيان: لكننا لا نحارب لاستعادة أرضٍ بل لإعطائها لأحدهم.

لم يُوافقه الفتى ذو الاثني عشر عامًا، يتطلع إلى الغيب آملًا بأن التخلص من أحد الأعداء يسهل عليهم التخلص من الآخر.

لاح إليه ضوءٌ من بعيد يقترب، ارتاب في أمره حتى لمَع نصل سيفٍ أسفل ضوء القمر، فهتف بكل قواه يكرر تنبيهه: "انهضا سريعًا، استعدا! الجيش العثماني مقبلٌ علينا."

وفي حالة من الهرج والمرج، اختبأ الجنود البريطانيون ومعهم بعض المصريين خلف الصخور والجبال، والبعض الآخر وقفا عزلًا في حالة استسلام.

اقترب فارسٌ ملثّمٌ منهم يأمرهم أن يركعوا على ركبهم ويضعوا أيديهم خلف ظهورهم. ثم هتف بصوت مرتفع: "من سيظهر من

نفسه من البريطانيين سيكون أسيرًا لنا، أما المصريون فسينضمون لجيشنا، ومن سيستمر في الاختباء فهو في عِداد الموتى."

تشجع سفيان وخرج من خلف الهضبة، فبالنسبة له لم يكن يهم مع أي جهة سيكون، فالحرب باعتقاده ليست إلا رقعة شطرنج، بيادقها الجنود والمدنيون، وكل من الملكين يسعى لإسقاط أكبر عدد من بيادق الآخر ليضغط عليه ويظفر بالأرض.

بعد ساعة، كانا قد قتلا جنديًا بريطانيًا واتخذا الباقي أسرى، والمصريون يسيرون خلف الأحصنة ولم ينتبهوا لهروب ذلك الجندي البريطاني.

طلع عليهم أول شعاع من الشمس، وأرهق الرجالَ يتضورون جوعاً، وما زال يتقدم القائد بفرسه وهم يتبعون أثره. رفع "سفيان" رأسه، ينظر إلى القائد، فوقع بصره على فتى القرية أمامه بصفان.

سعد برؤية الفتى وكأنه موطنه الصغير، وعد ذاته أنه مهما حدث وحتّى آخر نفس فيه سيحارب، ولكن ليس ليفوز أحد بل ليحيي ذلك الغصن اللين لعمر أكثر منه. قرر شق الصفوف ليصل إليه، وحين وقف بجواره دوى صوت البارود وصهلت الأحصنة بقوة حتى وقع أحد الفرسان، والآخرون يحاولون السيطرة عليهم يجرون بها بلا وجهة محددة، تصعد ذرات الرمال وتزيد الجو عُفْرَة، من بينها ظهر جنودٌ بريطانيون يحررون أبناء جنسيتهم.

اقترب الفتى المدعو "محمد" برهبة من "سفيان"، فربت عليه الآخر ليطمئن مشيرًا إلى صخرة عملاقة: "لا تخف، سوف نتوارى خلف تلك الصخرة، ولن نذهب إلى أي حروب، سنعود إلى القرية".

وافقه الفتى بقلق، فخبأه "سفيان" وراء ظهره ليحميه، وتسللا من بين الحشد. وأثناء التفاته وراء الصخرة، أصابته رصاصة طائشة أرخت جسده بعدما أخذ آخر خطوة يستدير إلى "محمد".

جثى الصبي أمامه، يرطم وجهه خائفًا، فأخبره: "أرى الموت يهرول إلي". نظر إلى عينيه مُتعرق: "عدني بأن تحارب كل الظروف من أجل بقائك". أومأ لها ووجهه ملطخ بالدموع. فأكمل يشهق: "أوصيك بدفني وأخبار عائلتي عن مدفني". ثم لفظ الشهادة، وانتقلت روحه إلى الرفيق الأعلى.

وافته المنية قبل خوض أي حروب، وفي كلا الحالتين لكان اسمه منسيًا كغيره ممن استشهد. وكما هو معروف في الحروب، يموت المليارات جوعًا ويظل الطغاة يختبئون خلف أسوار قصورهم، لا يفكرون في كم روح ضحت فداءً لروحهم الخسيسة. كم شهيد حرب يحارب لاسترداد حقه من أنياب الليث، وصاحب الحق لا ينسى حقه ولو مرت قرونًا، حتماً ستأتي فترة قوة ويسترد سلطانه ويحيي أحلامًا ماتت مع كل نقطة دم أرهقت فداءً للأرض.

مضت الساعات وغلب القائد العثماني البريطانيين، وحل الليل في ظل اختباء "محمد" مع جثمان "سفيان" خلف الصخرة. انتظر رحيلهم، ووقف يسير بين الجثث حتى رأى عربة بها فرسان من الأمام، شد لجامهم حتى الصخرة، وبعد معاناة مع بينية "سفيان" الثقيلة عليه، نقله داخل العربة عائدًا إلى بلدتهم.

الفصل الثالث.

مع إشراق شمسٍ جديدةٍ، تخطت العربة بوابةَ القرية، وهرع الفلاحون يختبئون في ديارهم مُصدين الأبواب، وتطل أعين النساء الفضولية من خلف المشربية يتابعن تقدمَ عربة الإنجليز داخل القرية. وعندما لمحت "أم محمد" أن قائدَ العربة ابنُها، خرجت من الدار متعجلةً، تتعثر في جلبابها الفضفاض الرث، وتقف أمام العربة تفحص ولدها بعينيها وحال لسانه يتساءل عن أحواله. أوقف الغلامُ العربة، يهبط واقفًا مقابلًا لأمه، وعلى حين غرةٍ ارتمي بين أضلعها يبكي كطفلٍ صغيرٍ فقد دميته العزيزة.

في ذات الوقت في منزل عائلتي "سفيان"، تكاد "آسية" تقبل يد السيدة "عائشة أم سفيان" لتخبرها أين هو، والحقيقة التي ترفض تصديقها من الأم هي تغيُّبه منذ الأمس. ومع استمرار الإلحاح على "أم سفيان"، خرجت السيدة المسنّة عن السيطرة، مجبرة إياها على طردها خارج الدار، وقد بلغت انفعالاتها الذروة من ضيق وقلق يتنكران في زي الغضب. أثناء دفعها خارج الفناء، جاءهما خبر "سفيان"، فلم تقوَ قدما السيدة على حملها تهوى أرضًا تعانق كفوفها الثرى حسرة على وحيدها وفلذة كبدها.

أما عن المحبوبة، هرولت متخبطة في أفكارها قبل شعورها بارتطامها بالأشخاص، حتى وصلت إلى العربة ذات الأبواب المنفرجة، تشاهد جثمان "سفيان" المغمور بدمائه. دنت منه بعينين جاحظتين تتأملان ذبول محياه، وكأنه مريض، وليتَه كان مريضًا فيشفى، ولكن إن كان الداء مغادرة الروح، فما هو الدواء إذا كان هناك أحباب ينتظرون شفائه؟

لحظات، وشعرت بأن أحدهم يعتصر مرفق يديها، يدفعها للخلف، وأمها تلتقطها بين أحضانها. فقد تعرف قلبها عليها من دفء احتوائها.

غطتها أمها بشالها تواريها عن الأعين، وتجذبها للابتعاد عن العربة، وعلى مرمى بصرها، ترى السيدة عائشة تلطمي وجهها وتولولي على جثمان "سفيان".

كان المشهد مهولاً على قلبها الهائم.

بعد ستة أشهر.

كل ليلة مرت على "آسية" فقدت بها جزءًا بداخلها يضاهي الموت، بل إنها أصبحت تشبه الموتى الأحياء. مرضت مرضًا شديدًا عجز الأطباء عن علاجه. تأكل جسدها وهي حية، وأصبحت عظامًا يسترها رقيق الشحم، وكل عضو يصرخ من الآلام لا يعرف من أي صوب تسلل إليه المرض. أما علميًا، وما غفل عنه الأهل والأطباء، هو أصل مرضها وكيف أصبحت نفسها الحزينة تقف نداً لجسدها. فإن لم يشكُ لسانها رثاءً على المحبوب، فقد شكا الجسد، اقام عليها الحد بالقتل ببطء شديد، حتى إن قلبها لم يسكن في هدوء، بل تركها تتألم من آلام الفراق. وحين جاءتها الراحة، جاءت ترتدي ثوب المَنيّة. فهي الراحة حين لا ترى أحدًا بجانبك ويساندك، حتى والدتها لم تفهم سبب مرضها أو أنها فضلت ألا تعترف بذلك.

طوت صفحات الكتاب لتوصد على الذكريات، وبكف يديها في حركات دائرية تحسست باطنها المنتفخ، فكل ما فات ما هو إلا قصة عفا عليها الزمن، وقررت تدوينها وحرقها حتى تدفنها رمادًا في ذكرياتها، ولا يمكن النبش في محتوياتها بعد الليلة وللأبد.

أما اليوم، هي "آسية ابنة شعيب" زوجة "مصعب بن عمير" ابن عمها، وليس "آسية" حبيبة "سفيان". النهاية في القصة ليست صادقة بخصوص موتها، ولكن تلك الفتاة اليافعة، التي كان "سفيان" حبيبها الأول، قد دُفنت بجوار جثمانه.

الآن هي حُبلَى بفتاة ستسميها "ميسون"، وأما عن تربيتها فقد أعدت ورسمت لها الدرب، في طريق منير قريب إلى الله. لم تجعلها تختلط بالرجال، وإن كان رجل واحد تحبه وتخلص له دون أن يكون زوجها، ستحرص جيدًا على ألا تشعر بما شعرت. قد تلقي أحيانًا اللوم على أمها لأنها لم تنصحها بإنهاء علاقتها بـ "سفيان" من أجل ربها، بل كان دائمًا ما يشغل بالها نظرة أهل القريبة لهم خوفًا من وصمة العار.

"كل الدروب الملتوية من أجل الوصول لا توصل لما تريد، هذا إذا كنت تريد الوصول وليس التلاعب. كن مستقيمًا، واضح الوجهة، فارسًا مغوارًا يدافع عن ما يريد، وخصمًا لا يتوارى خلف النوافذ."

النهاية